

في نقد النحو العربي - بحث في النشأة والتطور -

د/ عزالدين عماري

جامعة محمد بوضياف / المسيلة

azzeddine1974@gmail.com

الملخص:

نشأ النحو العربي وتطور، ولقد صاحب هذه النشأة وهذا التطور انتقادات كثيرة وجهت إليه، سواء ما تعلق منها بالأصول التي قام عليها، أو ما تعلق بكثرة قواعده وتفرعاته منذ نشأته إلى يومنا هذا. وإذا اتسمت هذه الانتقادات بكونها عفوية وبريئة في بداياتها الأولى؛ ذلك أنها تشكل ردة فعل طبيعية لكل ما هو جديد، فإنها لم تكن كذلك حينما رافقت ظهور علم اللغة الحديث، كعلم جديد له أصوله ومناهجه، وسلك النقد في ذلك اتجاهين مختلفين:

- **الاتجاه الأول:** اجتهد أصحابه في قراءة التراث النحوي، وعملوا على إعادة بنائه وفق ما يتطلبه علم اللغة الحديث في منهجه الوصفي، مؤكدين في ذلك على التزامهم بالموضوعية والعلمية.

- **الاتجاه الثاني:** حاول أصحابه جاهدين وبكل الوسائل إصاق مختلف أنواع التهم بالنحو العربي بدعوى الموضوعية والعلمية كذلك.

والذي يعنينا في هذا المقام هو الاتجاه الأول، ومنه فسيقوم البحث على تتبع المواقف النقدية التي مست النموذج النحوي العربي من أول نشأته إلى العصر الحديث، على أن نمهد للموضوع بالحديث عن نشأة الدرس النحوي العربي.

الكلمات المفتاحية:

النحو العربي، الأعراب، الشعراء، تهذيب النحو، ابن مضاء، المنهج الوصفي، المحدثون.

Summary:

Since its inception and development, the Arabic grammar has attracted many criticisms, whether it is related to the fundamentals it is based on or to its many rules

If these criticisms were spontaneous and innocent in their early beginnings, because they constitute a natural reaction to everything that is new, they were not when accompanied by the emergence of modern linguistics, as a new science with its origins and methods, and critics went in two different directions:

-The first trend: the owners worked hard to read the grammatical heritage, and worked to reconstruct it as required by modern linguistics in its descriptive method, stressing the commitment to objectivity and scientific.

The second trend: The owners tried hard and by all means to stick to the various types of charges in the Arab world on the grounds of objectivity and scientific as well.

What concerns us in this regard is the first direction, from which the research will follow the monetary attitudes that touched the Arabic grammatical form from its inception to the modern era, to prepare the subject by talking about the emergence of the Arabic grammar lesson

key words:

Arabic grammar, poets, grammatical grammar, Iben diaa, descriptive approach, modernists

01- نبذة عن نشأة الدرس النحوي العربي:

لقد حاول اللغويون العرب إزالة ذلك الغموض الذي ساد نشأة النحو العربي بعد الإسلام أو التنبيه إليه بشيء من الدقة، ذلك الذي يعود من ناحية إلى الخلط بين المراحل المتعاقبة التي تم فيها التفكير بوضع هذا العلم انطلاقاً من إبداء الملاحظات النقدية ثم الإشارات الوصفية لعلامات الإعراب، إذ إن النحو العربي و قبل أن يصل إلى مرحلة النضج قد مرّ بمراحل تطويرية كبيرة، فما بين نشأة النحو وكتاب سيبويه يزيد على المائة عام¹.

ومن ناحية أخرى، فإن تضارب الروايات واختلافها في إسناد الوقائع التي دعت إلى إبداء الملاحظات الأولى لم تحدد بوضوح معالم وضع النحو، فقد كان الحديث عن أهم الأسباب التي دعت إلى التفكير في وضع القواعد النحوية الوصفية الأولى، و من ذلك اللحن الذي بدأ قليلاً غير ذي خطر تمثل فقط في ألسنة بعض الأعراب ممن شذ عن كلام العرب الفصيح والذي سرعان ما أخذ في التفشي حتى مس النص القرآني نفسه، هذا، بالإضافة إلى محاولة فهم النص القرآني، و « ما وجد في القرن الأول من تأملات نحوية* أو محاولات لدراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز إليه إسلامياً، ولم يقصد لذاته وإنما لاعتباره خادماً للنص القرآني...»².

وإذا كان من الدارسين من يرى بأن النحو لم يكن في بداية الأمر صناعة علمية، ولم يوضع دفعة واحدة وفي زمن واحد، بل إن تلك الملاحظات النقدية التي تتمثل في إصلاح الخطأ وإبداء الصواب، قد ساهمت بعد ذلك في التفكير بوضع تصور عام لقواعد اللغة العربية انطلاقاً من المحاولات الوصفية التي أبداه أبو الأسود الدؤلي وتلاميذه، والتي وصفوا من خلالها وسموا بعض المصطلحات وعللوا لبعض القواعد، والتي كانت سبباً في ازدهار البحث في النحو واللغة³. ومن يرى بأن ملاحظات أبي الأسود

الدولي الصوتية واعتماده على النطق وتسجيل الملاحظة، كانت أول بادرة سجل من خلالها مفهوم الإعراب وميز بين الحركات فيما بينها، ثم بين الحركات الأصول والفروع.

فإن منهم من يعرض للروايات التي تجمع على إسناد وضع النحو لأبي الأسود، ويرى بأن هذه الروايات لم تحدد بوجه الدقة نشأة النحو الأولى، كما يرى أن عمل أبي الأسود لا يتعدى أن يكون وضع النقط الذي يحرر به حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم وهو ما يسمى برسم العربية، وسبب ذلك خلطا جعل الرواة يعتقدون فيما بعد أن أبا الأسود في رسم العربية إنما هو رسم إعراب القرآن عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه⁴.

وبعد أبي الأسود الدولي اشتهر نحاة آخرون منهم: أبو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر النخعي، وأبو عمر بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد عُدَّ ابن أبي إسحاق « من أوائل النحاة الذين تصدوا لهذا العلم وشاركه تلميذه أبو عمر بن العلاء، غير أن التلميذ خالف أستاذه بحكم معرفته الواسعة بالمادة اللغوية وطبيعة كلام العرب، ففي الوقت الذي كان الحضرمي يتشدد فيه في إجراء القياس على كل استعمال و يهمل أو يخطئ ما عداه كان أبو عمر بن العلاء يقيس على الأشيع والأكثر في كلام العرب وما خالف ذلك لا يهدره ولا يخطئ قائله، وإنما كان يعترف به كاستعمال من استعملات أبناء اللغة ينبغي احترامه»⁵.

ولما جاء الخليل كان النحو العربي على موعد مع رجل فريد من نوعه، فهو فضلا عن كونه عربيا متزودا بالمادة اللغوية الكافية قد شافه الأعراب وأخذ عنهم، فهو يمتاز بعقل رياضي متزن وذكاء حاد، « على يديه خلق النحو سويا كامل الأصول والفروع، ... وهو الذي رفع القواعد والأركان بما وضع من مصطلحات وضبط من قواعد، وأن النظرية اللغوية التي أقام عليها " سيبويه " كتابه هي من وضع الخليل وأعني بذلك نظرية العامل والمصطلحات التي دارت حولها»⁶.

وكان من الطبيعي بعد الخطوة الجبارة التي خطاها الخليل في وضع القواعد وترتيب العلل، وبعد مرحلة التأليف التي ابتدأت بكتاب سيبويه أن يؤلف النحاة في أصول النحو بعدما توفر لهم المناخ الفكري المناسب، وهذا العلم يبحث في أدلة النحو وليس في قواعد، يقول السيوطي (ت 911 هـ): « أصول النحو علم يبحث فيه عن أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلته، وكيفية الاستدلال بها، ...»⁷ وهذه الأصول عند النحاة القدامى على قدر من الاختلاف والتسمية: سماع وإجماع وقياس واستصحاب حال، وأول من كتب فيها هو "ابن السراج (ت 316 هـ)"، « و ليس معنى وجود أول مؤلف مشهور في هذا الموضوع في القرن الثالث الهجري، " أصول ابن السراج " أن تلك الأفكار لم تكن موجودة من قبل، بل

كانت موجودة في صورتها العملية في دراسات النحاة وآرائهم، لكن لم توضع للبحث بطريقة مباشرة إلا بعد فترة كافية من بداية النحو ونموه⁸.

02- بدايات النقد الأولى:

قبل أن نتكلم في هذه البدايات، علينا أن نميز أولاً بين مفهومين أساسيين يتعلقان بالعادة اللغوية من جهة وباللغة من جهة أخرى:

الأولى باعتبارها نشاطاً مألوفاً لدى مجتمع معين، وضمن مجتمعات متقاربة في اللغة الواحدة من جهة الأداء اللغوي كاللهجات العربية، فهي أداء فعلي تظهر فيه بعض الفروق الصوتية والصرفية، وهي ليست فروقاً أساسية مادام أنها تتعلق بلهجة معينة من هذه اللهجات.

والثانية باعتبارها ظاهرة اجتماعية ثقافية وقومية يتم بها التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد مهما تعددت النشاطات الفعلية لها.

إن العادات اللغوية نعيمها ونفهمها ولا يمكن أن نسيطر عليها في الحالات التعبيرية العادية لأن هذا مرده إلى الطبع في العادات اللسانية، ولا أدل على ذلك من اختلاف القراءات القرآنية، الذي هو ليس اختلاف تغاير⁹، بل هو اختلاف في الأداء النطقي المتوارث، ويمس جانب التواصل النطقي فقط.

إن تصنيف المظاهر الصوتية لبعض لغات القبائل كعننة تميم وكشكشة أهل اليمن وغيرها، والتعليل لكل ما يتصل بالخطابات اللهجية والعادات اللسانية، كل ذلك يمثل بدايات النقد الأولى في مستوياتها البريئة.

ويمكن أن نسجل في بدايات النقد الأولى موقفين اثنين، يتعلق الأول بنقد الأعراب فيما ذهبوا إليه في خطاباتهم، وتعليل الأعراب أنفسهم لمنطقهم بالعلل التعليمية التي كانت راسخة فيهم بالطبع، ويتعلق الثاني بالصدامات بين الشعراء والنحاة، وكذلك توجيه أشعار الجاهليين الذين يمثلون مرحلة من مراحل تطور اللغة.

أ- نقد الأعراب:

تشير الروايات على كثرتها وتنوعها إلى جانب مهم من الجوانب الإيجابية في لغتنا العربية، هذا الذي يتمثل في وجود الأداءات المختلفة التي قام بها الأعراب بكل طلاقة من جهة، ومن جهة أخرى تلك التعليقات البدهية لهذه الاختلافات، ومن ذلك أن أبا عمر بن العلاء سمع أعرابياً، يقول: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها، فقال له: أتقول: جاءته كتابي؟ فقال: نعم، أليست بصحيفة؟¹⁰، و هذا التعليل هو من حمل الإعراب على المعنى، ونظيره في القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾¹¹.

و حمل الإعراب على المعنى كثير في كلام العرب وأشعارهم، ولربما لو سألت الأعرابي عن العلة النحوية أو الإعراب أو الحمل، لما ردّ جواباً، ومثال ذلك الأعرابي الذي أنشد " نحن بني علقمة الأخيار "، فسأله الأصمعي عن سبب نصبه " بني "، فأنكر الأعرابي أن يكون قد نصبه¹²، فهو لا يعرف مصطلح النصب، هذا فضلاً عن باب الاختصاص، وإن كانت العلة قائمة في نفسه وقد تمكن منها طبعه، ومما يؤكد تمكن الطبع من الأعراب، أنه « سئل أحد من تميم يوماً، كيف يقول: "ضربت أخوك"، فقال: أقول " ضربت أخاك "، فأدير - أي الكلام - على الرفع، فأبى، وقال: لا أقول " أخوك أبداً "، فقيل له كيف تقول: " ضربني أخوك "؟، فرفع، فقيل له: ألست تزعم أنك لا تقول " أخوك " أبداً، فقال: أي شيء هذا، اختلفت جهتا الكلام»¹³. ولا بد أن الكلام عند هذا الأعرابي استعمال وعادة لغوية ولسانية على الرغم من أن جهات الكلام عنده من هذا القبيل، أي الأداء لكنه يعرف ما الفاعل وما المفعول.

ومن الملاحظات الدلالية النقدية الهامة في ذلك العصر المتقدم، تلك التي قدمها ابن عباس لعلي بن طالب - رضي الله عنهما -، حيث « يروى أن أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - عندما قرأ ﴿ وَ نَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكِ. قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ ﴾ 14 بالترخيم " ترخيم مالك "، أنكر عليه ابن عباس، فقال علي: هذا ترخيم في النداء، فقال ابن عباس: ما أشغل أهل النار في النار عن الترخيم، فقال علي: صدقت»¹⁵.

إن ابن عباس لم ينكر على علي بن طالب القراءة لذاتها، وإنما أنكر عليه الاستعمال اللغوي الذي رآه غير مناسب، وذلك لما عرف عن ابن عباس ببحثه في المسائل اللغوية، كون العرب أمة حكيمة في تعليلها سليمة الطبع في نطقها.

ب - نقد الشعراء:

الشعر ديوان العرب، وهو من المصادر التي ركز عليها اللغويون في جمع المادة اللغوية وفي الاحتجاج بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولما كان الشاعر يعرض نفسه في المواسم ويقصد الملوك والخلفاء، ويسجل الوقائع الفردية والجماعية فهو أكثر عرضة للنقد من غيره.

وكان سلطان النقد أو بالأحرى سلطان النحو التقعيدي قد اشتد على الشعراء بعد أن جرد ابن أبي إسحاق القياس وأخذ ينتبع أخطاء الشعراء، أو ما يراه بقياسه أنه خاطئ « وهكذا كانت كل الظروف مهيأة لوضع أساس علم النحو وضعا صحيحا، ومن هنا انطلق ابن أبي إسحاق ينتبع الشعراء ويرد عليهم أخطاءهم »¹⁶، ومن أكثر الشعراء تعرضا لانتقاداته الفرزدق، حيث تروي المصادر نشوب خصومة شديدة بينه وبين أبي إسحاق الذي عاب عليه أنه رفع " مجلف " في قوله:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلفاً.

فكان ردّ الفرزدق وهو غاضب عليه من شدة تتبعه له، أن قال: على ما يسوؤك وينوؤك، علي أن أقول وعليكم أن تتأولوا¹⁷، ولعل مقولة الفرزدق هذه تترجم بعدا نقديا من حيث إن التأويل قد يكون في بعض معانيه الانفتاح على تجربة الشاعر الفنية، ومحاولة فهمها، ذلك أن الشاعر متقف يعي مختلف الأداءات الكلامية ويحتاج إلى بلوغ مستويات عالية ورفيعة في قوله.

على أن شعراء الجاهلية والفحول منهم لم يسلموا من تتبع النحويين، وتكثر الأمثلة في هذا المجال، ومن ذلك حينما يقول النابغة الذبياني:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السّم ناعُ

ينتقد عيسى بن عمر قوله " ناع " ويقول بأن محلها النصب أي " ناعا " .

وتوجيه النحويين لم يكن دائما مصيبا، فتوجيه الشعراء لمعانيهم غالبا ما تحكمه الفطرة السليمة من جهة والعادات اللسانية التي عهدوها من جهة أخرى، ومن ذلك تتبع الحضرمي للفرزدق، فقد سأله يوما، كيف ينشد هذا البيت:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألّباب ما تفعل الخمر

فقال الفرزدق " فعولان "، فرد ابن أبي إسحاق: ما كان عليك لو قلت " فعولين "، فقال الفرزدق: لو شئت أن أسبح لسبحت، ونهض ولم يعرف أحد مراده¹⁸. وتوجيه البيت على أن " كان " تامة بينما كان ابن أبي إسحاق يعملها وهو خطأ.

والشواهد الشعرية والنثرية بالنسبة لانتقادات الأعراب والشعراء كثيرة في كتب النحو والأدب لا يتسع المجال لذكرها كلها.

إن هذه البدايات النقدية الأولى عند الأعراب من جهة وعند الشعراء من جهة أخرى، تعطينا فكرتين هامتين للموقف النقدي الأول؛ تتمثل الأولى في نقد الأعراب أنفسهم لهؤلاء النحويين، والتعليل لكل منهم بالعلل التي قامت في نفوسهم وتمكنت منها طباعهم، وتتمثل الثانية في بداية التقعيد النحوي وتسجيل الملاحظات على العادات اللسانية - ولا سيما النحوية - كإهمال الإعراب وغيره، وقد بدأ الشعراء يتحفظون من هذا الموقف ويتلاءمون مع موقف النحاة.

03- محاولات تهذيب النحو عند القدماء:

الظاهر أن النحو وحتى زمن الخليل على الأقل لم يكن الجدل فيه قائما، وحتى الصراع بين النحاة البصريين والكوفيين لم يعرف بدايته بعد، على أن من جاء بعد الخليل وسيبويه عقدوا المسائل، « ولذا ارتفعت مع نهاية القرن الثاني الهجري تقريبا أصوات تطالب بتيسير النحو، أخذت تظهر أحيانا في صورة آراء وتعليقات لبعض علماء اللغة والنحو ذكرها النحاة مثل قول أبي علي الفارسي عن معاصره أبي

الحسن الرماني: " إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء... »¹⁹، وهذا التعليق هو إلى الامتناع أقرب إليه من النقد.

وقد ضاق طلاب النحو بهذه الطريقة الجافة، « فظهرت دعوات متعددة على طول تاريخ النحو العربي، منها ما يدعو إلى تهذيب النحو وإصلاحه، ومنها ما يدعو إلى تركه والتخلي عنه بالكليّة »²⁰، وقد انتقد عبد القاهر الجرجاني أصحاب هذه الدعوات جميعاً، حين قال: « وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبهه بأن يكون صدا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه. ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها »²¹.

فأما أصحاب الرأي الأول المتمثل في تهذيب النحو وتيسيره فظهرت دعواتهم من خلال كتبهم والتي جاءت ميسرة تلبي حاجات المتعلمين، ومنها: مقدمة في النحو منسوبة إلى خلف الأحمر، ومختصر في النحو للكسائي، ومختصر آخر للجزمي، وثالث لأبي موسى الحامض، ورابع للزجاج، وهذه المؤلفات وما يشبهها لم تقترب من أصول التفكير النحوي أو النظرية النحوية، وإنما اتجهت إلى التطبيق والتعليم والاختصار²².

وأما أصحاب الرأي الثاني فإنهم لم يكتفوا بتقديم الكتب الميسرة المختصرة، وإنما اقتربوا أو حاولوا الاقترب من الأصول وذلك بما قدموه من مقترحات لإصلاح النحو ونقد مناهج النحاة ومن أقدم من تصدى لذلك ابن ولاد المصري وأبو العلاء المعري، وابن حزم، وابن مضاء... وإذا كان ابن ولاد المصري يرى بأنه لا يصح الطعن على العربي أو رميه باللحن أو تقديم القياس النظري على المادة اللغوية المسموعة، وهاجم التأويل والتقدير في النحو، وادعاء الحذف والإضمار، وإذا ما استثنينا أبا العلاء الذي تمثلت ثورته في تسديد معظم سهامه إلى طريقة التأويل أيضاً، والتعسف في تخريج كثير من الشواهد، فإن ابن حزم قد هاجم علل النحو ورأى بفسادها كلها، لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة²³.

إن ما سبق ذكره من آراء يظهر لنا وأنه يمس بالأساس العلل النحوية، غير أن التعمق أكثر في ذلك يبين بأنهم لا يهاجمون العلل كلها ولا يرفضون القياس جميعه، ذلك أن العلل تنقسم إلى علل تعليمية وقياسية، وإلى أخرى جدلية نظرية، والعلل التعليمية لم يكن لأحد أن يطعن فيها، « فهي التي يتوصل بها إلى معرفة كلام العرب، لأننا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها لفظاً، وإنما سمعنا بعضه فقسنا عليه نظيره... »²⁴.

إن وجود آراء نقدية مختلفة في كيفية التعليل والتعديد قد ساهم في تطوير النحو وسلامته إلى حد بعيد، فذكاء ابن أبي إسحاق ونظرته العقلية كان يحد منها سعة أبي عمرو بن العلاء ومعرفته بكلام

العرب، أما الخليل بن أحمد وسيبويه فكانت تعليلتهما من التعليلات التعليمية، وأما القياسية فالواضح أنهما أرادا بها مجرد التمثيل، وإن كانت إشارات سيبويه الكثيرة والمبعثرة في كتابه منها قد سببت خلطاً لمن احتج بها بعد ذلك.

04- موقف ابن مضاء القرطبي (512 هـ / 592 هـ):

ابن مضاء هو صاحب كتاب " الرد على النحاة " **، ولقد أثار كتابه هذا ضجة كبيرة، باعتباره عند كثير من اللغويين المحدثين يحمل أصول نظرية جديدة، وأنه المحاولة الوحيدة التي تتصل بمبدأ التيسير والإصلاح ومناقشة الأصول والمبادئ النظرية التي وضعتها البصرة²⁵، و ابن مضاء في حقيقة الأمر امتداد للجانب الثائر الذي يقدم انتقادات للنحو العربي، فهو قد طالب بهدم بعض أبواب النحو، ودعا إلى النظر لظاهر الكلام دون تقدير أو تأويل أو البحث عن علة العلة، ذلك أنه « لا يرفض العلة كلها كما فعل الظاهريون وكما زعم النحاة المحدثون في العصر الحاضر، بل أقر العلة الأولى لفائدتها التعليمية... ثم يمضي فيقسم العلة إلى ثلاثة أقسام، قسم مقطوع به - أي العلة التعليمية - وقسم فيه إقناع وقسم مقطوع بفساده»²⁶.

إن نظرة متفحصة لبعض ما كتب عن ابن مضاء، تجعلنا نسجل النقاط التالية:

أ- لقد رفض ابن مضاء فلسفة العامل وتحكم العلامة الإعرابية بالتأويل والتقدير، ولم يرفض العامل نفسه، ولم يقدم أصول نظرية جديدة كما ادعى بعض اللغويين الغربيين واعتبروا آراء ابن مضاء منطلقاً صحيحاً للوصف اللغوي عند العرب²⁷.

ب- رفض ابن مضاء القياس بالعلل الثواني و الثوالت، وأقر العلة الأولى، بل إنه عرف العلة بتقسيمها²⁸.

ج- رفض القياس العقلي، كما رفض كذلك قياس التمارين غير العملية بما فيها من تراكيب مختلفة بعيدة عن الاستعمال العربي العادي، فضلاً عن النصوص الأدبية الراقية وأشار إلى الإشكال في كثرة الضمائر والتقديم والتأخير مما يدعو إلى التشويش²⁹.

د- دعا إلى إسقاط المواضيع التي لا علاقة لها بالنحو، ولا فائدة تؤدي إليها وذلك كالاختلاف في ما هو الضمير في " أنت " أهو النون أم التاء أم الكلمة كلها.

هـ- دعا كذلك إلى إسقاط الكثير من أبواب النحو، أو المسائل التي يعتبرها النحاة المتأخرون وعلماء اللغة من المحدثين غير عملية، وذلك بسبب تفريع المسائل وتشقيقها مثل أبواب الاشتغال والتنازع. وقد اصطدم ابن مضاء بنصوص لا مجال لإنكارها في بابي الاشتغال والتنازع، في مثل قول الله تعالى: ﴿ قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾³⁰، فكلا من العاملين " آتوني " و " أفرغ " يطلبان المعمول " قطراً "، على

أن ابن مضاء ليس قصده إلى إلغاء النص في ذاته، وإنما يقصد تأويل الأعمال والاشتغال والاختلاف فيهما³¹.

ونستطيع القول أن موقف ابن مضاء بالنسبة لما تقدم من مواقف نحوية سابقة يعتبر تطوراً ذا أهمية للموقف النقدي، وهو يكتسب هذه الأهمية من الناحية الزمنية باعتبار أن ابن مضاء من النحاة المتأخرين، أي من نحاة القرن السادس الهجري، بالإضافة إلى الأهمية التي يكتسبها من الناحية الفكرية في طرح القضايا التي باتت تشغل طلاب النحو في الزمن المتقدم.

05- تهذيب النحو عند المحدثين:

مع ظهور دعوات التيسير والإصلاح للنحو العربي قديماً مع اختلاف في حدة النغمة ومعالجة الموضوع، وبعد الضجة التي أثارها آراء ابن مضاء القرطبي، أصبحت دعوات إصلاح النحو العربي أو تهذيبه وتجديده في العصر الحديث مصدراً لإلهام وتوجيه محاولات الإصلاح التي بدأت مبكراً، وقد بدأت هذه المحاولات على شكل إصلاح أو تيسير في التأليف النحوي دون الاقتراب من الأصول النظرية والمنهجية³².

وما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام، تلك الظروف المجتمعة والتي تقدمت هذا العصر، وما رافقها من تغيرات في الحياة الفكرية والاقتصادية ساهمت في بلورة قرار خطير في حق النحو العربي يتمثل صراحة في إلغاء قواعد اللغة العربية.

وهذه الظروف تتمثل في المرحلة التي آلت إليها علوم اللغة عامة والنحو خاصة من جفاف وتكرار وغموض في التأليف والتدريس معاً، فكانت القواعد النحوية تصنف في منظومات شعرية تتيف عن الألف أو تزيد، « وقد مر زمن سيطر فيه تدريس قواعد اللغة العربية بواسطة ألفية ابن مالك، وقد كانت النتيجة أن الطلاب كانوا يحفظون الكتاب غيباً دون أن يتقنوا كتابة اللغة ويحسنوا قراءتها »³³.

كانت دروس النحو قد استقرت في الأزهر محصورة في المتون والشرح، وكانت قيمة كل مؤلف نحوي تتركز في إحاطته واشتماله على تفاصيل الخلاف بين النحاة³⁴، كما كان هؤلاء في عصر الضعف وإلى عهد قريب يرون في التعمية والتعقيد ونظم الألفيات فيما يسمى بالشعر التعليمي قيمة في التطور، فلما كانت حملة " نابليون " على مصر، كانت الصدمة قوية على العرب والمتعلمين منهم بالأخص، وكانت الهزيمة فكرية وروحية أكثر منها عسكرية، وكان من نتائج ذلك أن تنكروا للغتهم ونحوهم وطرق عيشهم، فإذا أضيف إلى ذلك كله الرحلات العلمية صوب فرنسا فإن السخط يكون تاماً على طريقة النحاة القدماء دون استثناء.

كانت محاولة الميسرين في بداية الأمر تتركز على تأليف الكتب المختصرة، ولكن أهميتها تكمن في الأسلوب العلمي الذي تعالج به طرح الموضوعات النحوية، فقد جاءت المحاولة الأولى لعرض النحو العربي عرضاً حديثاً بعيداً عن الشروح والمتون على يد " رفاعه الطهطاوي " الذي ألف أول كتاب يعرض للنحو عرضاً مختلفاً، فكان على نمط مؤلفات الفرنسيين، وخرج فيه على طريقة معاصريه من علماء الأزهر، والمقصود هو تخليص الكتب النحوية من العبارات الغامضة والاختلافات النحوية والشروح الجزئية وإعادة صياغتها بأسلوب سهل وواضح، وقد ألف بنفس الطريقة كتب كثيرة، منها: النحو الوافي، النحو الواضح، النحو الميسر، وغيرها، وهذا النوع من التأليف لم يخرج فيه عن إطار النظرية النحوية التقليدية، وقد ظل متدفقا حتى يومنا هذا رغم ما قدم من ملاحظات قديما وحديثا³⁵.

وفي سياق الحديث عن محاولات التيسير التي ابتدأت برفاعة الطهطاوي، وجملة من ألف على طريقته، فإنه لا بد من الحديث عن حركة أخرى ظهرت وهي تتعلق بإحياء النحو، «و قد بدأت أولى محاولات الإحياء هذه بظهور كتاب " إحياء النحو " للأستاذ إبراهيم مصطفى عام 1937 الذي حرك قضية إصلاح النحو وتيسيره بشدة، والذي لا شك فيه أن صاحب " إحياء النحو " قد استفاد كثيرا من آراء الفراء وابن مضاء القرطبي فيما ذهب إليه من حمل المبنى على المعنى أو إلغاء نظرية العامل»³⁶.

وفي خضم هذه الحركات الإصلاحية والإحيائية، نشأ تيار آخر ارتبط بها، يتمثل في النظر إلى اللغة العربية وعلاقتها بالحضارة الحديثة، ويتمثل هذا التيار في الدعوة إلى تطوير اللغة الفصحى أحيانا، أو اصطناع العامية بدلا منها أحيانا أخرى، أو إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية و يمثل هذا التيار سلامة موسى ومحمد كامل حسين³⁷.

وفي نهاية البحث، وبعد كل ما تم ذكره، نخلص إلى ما يلي:

- إن النحو كان في بدايته وصفا لكلام العرب في تركيبه المألوف من خلال إبداء الملاحظات، وتطور بتعليقه نتيجة تطور النضج العقلي حتى وضعت القواعد ورتبت العلل بعيدا عن التقليد وكانت أصوله عربية في تنظيرها تدل عليه.
- الملاحظات النقدية عند كل من الأعراب والشعراء وتأملاتهم النحوية كثيرة مبثوثة في كتب النحو واللغة، وهي تشهد بأن العرب لم تكتف فقط بفصاحة القول ولا بتقديم الانتقاد فحسب، وإنما هي قد ركزت على التعليل لكل موقف نقدي.
- صيحات التذمر عند القدماء سواء ما تعلق منها بالتهذيب أو الإصلاح تبدوا وكأنها قد مست العلل النحوية، لكن الحقيقة أنهم لا يهاجمون العلل كلها ولا يرفضون القياس جميعه، ومثال ذلك العلل التعليمية التي لم يكن لأحد أن يطعن فيها.

- إن عمل ابن مضاء القرطبي من خلال كتابه " الرد على النحاة " وآرائه المبنوثة فيه يتمثل في عنصرين هامين لم تستطع المحاولات السابقة لإصلاح النحو أو تيسيره وتهذيبه أن تصل إليهما:
- تبدو أهمية العنصر الأول في الطريقة العلمية وفي المنهج الذي اتخذه في مهاجمة النحاة وأصول النحو العربي بصفة خاصة من حيث الدراسة النحوية ووصف نصوص اللغة.
- وتبدو أهمية الثاني في الجرأة المميزة في الدعوة إلى إلغاء أبواب كاملة من النحو معللا ذلك بالأمثلة والشواهد، حيث أصاب في بعض ما دعا إليه، وتراجع بنفس الشجاعة وباقتناع أيضا عن بعض ادعاءاته، بينما كانت المحاولات السابقة لدعوته لا تمثل سوى تذمرا ومطالبة للتيسير أو إلغاء النحو بدون مبرر، وبعضها الآخر اختار طريق الاختصار فيما ألفوه من كتب ذات طابع تعليمي مع شيء من الاختلاف في التوبيخ.
- تركزت أبحاث الإصلاحيين المحدثين على إيجاد نحو على الأقل خال من الاختلافات والجزئيات وبطريقة مختصرة وسهلة، لكن الإحيائيين وإن حاول كل فريق منهم أن يصل بالنحو إلى نظرية جديدة، فقد اختلفوا في وجهات النظر.

Abstract

Since its inception and development, the Arabic grammar has attracted many criticisms, whether it is related to the fundamentals it is based on or to its many rules

If these criticisms were spontaneous and innocent in their early beginnings, because they constitute a natural reaction to everything that is new, they were not when accompanied by the emergence of modern linguistics, as a new science with its origins and methods, and critics went in two different directions:

-The first trend: the owners worked hard to read the grammatical heritage, and worked to reconstruct it as required by modern linguistics in its descriptive method, stressing the commitment to objectivity and scientific.

The second trend: The owners tried hard and by all means to stick to the various types of charges in the Arab world on the grounds of objectivity and scientific as well.

What concerns us in this regard is the first direction, from which the research will follow the monetary attitudes that touched the Arabic grammatical form from its inception to the modern era, to prepare the subject by talking about the emergence of the Arabic grammar lesson, This is done by preparing the topic by talking about the emergence of the Arabic grammatical lesson at Abu al-Aswad al-Dawali, al-Khalil ibn Ahmad al-Farahidi and Sebwayeh, others of the grammarians, and then following the beginnings of the first criticism, where we record two positions, the first relates to criticism of the Arabics, and the second relates to clashes between poets and The second is the reform of grammar and critique of the curriculum of the grammarians, and then we are exposed to the position of the son of a

lighted man. Drought Is the author of the book "The Answer to the Beggars", since many modern linguists have the only attempt to relate to the principle of facilitation and reform. We are also exposed to attempts to improve the grammar of the modernists, these attempts that began with the Revaa ahtawi, and a thousand in his way, - "Revaa Tahtawi," which was the first book to display a different way, where he was the style of French literature, and went out in the way of his contemporaries of scientists Al-Azhar - which began in the form of reform or facilitate in the composition of grammar without approaching the theoretical and methodological assets, and it was initially focused on the writing of short books, and its importance lies in the scientific method in which the introduction of grammatical subjects. We also refer to the movement of revival of the grammar that emerged with the emergence of the book "revival of grammar" of Ibrahim Mustafa, who raised the issue of reform of grammar and greatly facilitated, taking advantage of the views of fur and son lit the Qurtubi in the transfer of the building of the meaning or cancel the theory of the worker, To the current represented by the safety of Moses, which calls for the development of the classical language or the synthesis of colloquial instead of or to replace the Latin letters replace the Arabic letters, so that the search in the latter to record the most important results.

key words:

Arabic grammar, poets, grammatical grammar, Iben diaa, descriptive approach, modernists,

الهوامش:

- 1 - ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط: 08، 2003، ص: 79
* من ذلك ما يتعلق بتأنيث المذكر، كتأنيث الكتاب في قول الأعرابي: " فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها "، ومن ذلك أيضا تأنيث الفعل المسند إلى جمع التكسير في قولنا: " جاءت الرجال ".
- 2 - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 79.
- 3 - ينظر: بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص: 52.
- 4 - ينظر: حلمي خليل، من تاريخ النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1995م، ص: 18، 19.
- 5 - حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي: دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، 1995م، ص: 21.
- 6 - حلمي خليل، من تاريخ النحو العربي، ص: 31، 32.
- 7 - جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط: 02، 2006، ص: 21.
- 8 - محمد عيد، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، دار عالم الكتاب، القاهرة، ص: 05.

- 9 - ينظر: الحسين بن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها، تحقيق: عبد الرحمان بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، د ت، ج: 01، ص: 23.
- 10 - ينظر: بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 43.
- 11 - البقرة، الآية: 275.
- 12 - ينظر: عبد الجليل مرتاض، العربية بين الطبع والتطبيع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993م، ص: 07.
- 13 - المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- 14 - الزخرف، الآية: 77.
- 15 - ينظر: بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 45.
- 16 - حلمي خليل، من تاريخ النحو العربي، ص: 22 .
- 17 - ينظر: أبو عبد الله محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، 1999م، ص: 141.
- 18 - ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 91.
- 19 - حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص: 49، 50.
- 20 - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 152.
- 21 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 05، 2004م، ص: 28.
- 22 - ينظر: حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص: 124، 125.
- 23 - ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 157، 158، 159.
- 24 - بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 49.
- ** - نشر الكتاب لأول مرة على يد " شوقي ضيف " عام 1947.
- 25 - ينظر: حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص: 55.
- 26 - بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 72.
- 27 - ينظر: حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص: 55.
- 28 - ينظر: بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 72.
- 29 - ينظر: محمد عيد، أصول النحو العربي، ص: 83 وما بعدها.
- 30 - الكهف، الآية: 96.
- 31 - ينظر: بكري عبد الكريم، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ص: 150.
- 32 - ينظر: ممدوح عبد الرحمان الرمال، العربية والوظائف النحوية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 1996م، ص: 13.
- 33 - أحمد مختار عضاضة، التربية العلمية و التطبيقية، مؤسسة الشرق الأوسط، لبنان، ط: 03،

1962م، ص:280.

34 - ينظر: ممدوح عبد الرحمان الرمالي، العربية الوظائف النحوية، ص:13.

35 - ينظر : المرجع نفسه، ص:14.

36 - حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص: 61.

37 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 84.